

صورة الآخر في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية

الباحث: عيسى طهاري – جامعة باتنة 1

الدكتور: محمد مشعالة – جامعة باتنة 1

الملخص:

لقد حظي الآخر بنصيب وافر في الرواية الجزائرية خاصة تلك الناطقة بالفرنسية، حيث شغلت صورته مخيال الروائيين الجزائريين الفرانكوفونيين، كما أثمرت إنتاجهم الأدبي، لذلك تسعى هذه الدراسة إلى عرض صورة (الآخر) في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية، فكيف قدم كتابها صورة ذلك الذي نطلق عليه (الآخر)؛ أي العنصر الأوروبي؟ وهل يشمل الآخر الفرنسي الغازي المستعمر، أم ذلك الوافد المستوطن، أم المواطن الفرنسي في بلاده؟ وذلك من خلال روايتي الحريق لمحمد ديب والأرض الدم لمولود فرعون.

الكلمات المفتاحية: صورة، الآخر، الرواية الجزائرية، الفرانكوفونية، محمد ديب، مولود فرعون

Summary:

The other had a share of the Algerian novel especially the one of French-speaking in which its image occupied the imagination of the Algerian and Francophone narrators and rich their literary production, So that this study seeks to show the picture of (the other) in the Algerian francophone novel, How its writers presented the picture of (the other) which is the European element ? And if it includes the colonised French other? Or the settler delegation in his country? And this through the two novels of " the Fire" of Mohammad Diib and "the Earth and Blood " of Mouloud Feraoun.

Keywords:The other, the picture, Mohammed diib, Mouloud Feraoun, Algerian novel, Francophone.

قبل دراسة صورة الآخر في الرواية الجزائرية علينا أولاً توضيح بعض المفاهيم، وتحديد بعض المصطلحات أهمها: 1. الصورة 2. الآخر. 3. الرواية الفرانكفونية.

أولاً: الصورة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في شرح كلمة صورة «ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته»⁽¹⁾، وكل هذه المعاني من ظاهر الشيء، أو هيئته أو صفته يجري إطلاقها على الصورة، كما ورد في القاموس المحيط للفيروز آبادي أنّ معنى كلمة «الصورة بالضم: الشكل... وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة»⁽²⁾ أما من حيث الاصطلاح فقد ارتبط مصطلح الصورة بشكل أساسي في البحوث الأدبية بالصورة الشعرية أو البلاغية، غير أنّ ما نقصده نحن في هذه الدراسة هو ذلك التصور للآخر المستخلص والمتكون من خلال تحليل النصوص الأدبية.

وقبل الحديث عن صورة الآخر في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية لابد لنا من الإشارة إلى الصورة بصفة عامة، ووصفها في إطارها ضمن الدراسة الأدبية.

إنّ الصورة التي يستمدّها الأديب من واقعه المجتمعي تنقسم إلى قسمين هما:

1. **صورة شعب في أدبه:** وهو الأدب الذي يرسمه أديب ما عن شعبه، فيشاهد المجتمع صورته فيكتشف ما به من عيوب فيسعى إلى تقويمها.

⁽¹⁾ - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، مج 4، ص473 (مادة صور)
⁽²⁾ - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، 2008م، ص955 مادة (صور)

2. صورة شعب في أدب شعب آخر: وهذا النوع يتعدى الإطار اللغوي والقومي

إلى الإطار الثقافي فتتمازج فيه ثقافات الأمم وتختلط.

وموضوع دراستنا يدخل ضمن القسم الثاني، ونقصد به انعكاس صورة شعب في أدب شعب آخر، وصور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى هو ميدان من ميادين الأدب المقارن، الذي يحاول بدوره توضيح تلك الصور وإبراز جمالها أو قبحها، والبحث عن قيمتها الأدبية، كما أنّ دراسة هذه الصور «تؤدي إلى توعية الشعب المتصور بما يحمل من أوام، تشوب معرفته بحاضره المعاش، وبأحداث الآخر الذي يتصوره»⁽¹⁾

فهذه الدراسة تساعدنا على فهم الآخر، كما توضح صورته، وبذلك نستطيع مواجهة نقاط ضعفنا، بمجابهة حاضرننا ومستقبلنا بطريقة أفضل، وبهذا نستخلص مفهوم "صورة الشعب"، وهي «كل ما في الذهن حول ذلك الشعب»⁽²⁾

كما أنّها أيضا «تصور فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وشعورية، موضوعية وذاتية»⁽³⁾، لذلك فالصورة التي ترسمها الذات للآخر (الشعب) لا تقوم عفوا، بل هي نتيجة وعي ومعرفة سابقين، فهي تستدعي مرجعية محددة وواضحة ومتكاملة من القيم الجمالية والدينية والمعرفية هي «ما يمكن أن نطلق عليه نعت (الوعي الثقافي)»⁽⁴⁾

¹- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط3، 2015م ص65

²- عبد المجيد حنون: السابق، ص71

³- نفسه، ص71

⁴- محمد الخباز: صورة الآخر في شعر المتنبي، (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2009م، ص26

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ صورة الآخر تتضمن غالباً موقفاً أخلاقياً تجاه الآخر إضافة إلى موقف معرفي، فالذات وهي تحدد صورة (الآخر) «ترى نفسها هي الأساس الذي تصدر عنه المعايير التي يمكن خلالها تحديد من هو الآخر وكذلك الآخر في سلم القيم»⁽¹⁾ وبذلك تكون الصورة تصور، والتصور لا يطابق موضوعه بل يطابق مصدره .

ثانياً: الآخر:

إنّ مصطلح(الآخر) هو الأساس في هذه الدراسة فهو ذو أبعاد متشعبة لها علاقة بعلوم شتى (علم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة)، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور: «الآخرُ بالفتح: أحد الشيين، وهو اسم على أفعل، والأنتى أُخرى، .. والآخرُ بمعنى غيرَ كقولك رجلٌ آخرٌ، وثوبٌ آخرٌ»⁽²⁾، وفي قوله تعالى: «فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا»⁽³⁾ ومعناه «فمسلمان يقومان مقام النصرانيين يحلفان أنّهما أختانا ثم يُرْتَجَعُ على النصرانيين وقال الفراء : معناه أو آخرانٍ من غير دينكم من النصارى أو اليهود»⁽⁴⁾، فالآخر يعني كل إنسان مختلف، سواء كان هذا الاختلاف شكلياً أو ضمنياً، فالاختلاف من ناحية الشكل (صفات فيزيولوجية - بنى جسمانية...)، والاختلاف الضمني بمعنى (فكرياً - سياسياً - دينياً - عرقياً ..)

وبالعودة إلى موسوعة لالاند (Lalande) الفلسفية نجده يعرف (الآخر) بأنّه: «أحد مفاهيم الفكر الأساسية ومن ثمّ يمتنع تعريفه فهو نقيض الذات

⁽¹⁾ - محمد الخيّاز: السابق، ص26

⁽²⁾ - ابن منظور: السابق، مج04، ص12 مادة (أخر)

⁽³⁾ - سورة المائدة: الآية 107

⁽⁴⁾ - ابن منظور: نفسه، مج04، ص13(مادة أخر)

Même»⁽¹⁾ ويعبر عنه أيضا بعدة ألفاظ منها «شتى divers، مختلف différent، أو مميّز distinct»⁽²⁾، غير أنّ هذه التعريفات لا تستوفي حقيقة "الآخر" ولا تعطينا تعريفا جامعا مانعا، والآخر في أغلب الأحيان يعني الضدّ، النقيض، المختلف، العدو، ولا يمكن أن تبنى العلاقة معه إلاّ على أساس تصادمي.

و(الآخر) مصطلح مرتبط بمصطلح (الأنا)، فبقدر ما يتضح المفهوم الأول وترتسم حدوده، فإنّ المفهوم الثاني (الآخر) يتضح، فالعلاقة بينهما هي علاقة تلازم، كما أنّ استخدام أحدهما يتطلب ويستدعي استخدام الثاني، فصورتنا عن ذاتنا لا تتم بمعزل عن صورة الآخر لدينا، وصورة الآخر تعكس بطريقة ما صورة للذات، لذلك لا(أنا) دون (الآخر)، حيث يقول جون بول سارتر: «أنا في حاجة إلى توسط الآخر لأكون ما أنا عليه»⁽³⁾، ومن خلال هذا التصور لـ (الأنا) كمبدأ للسيطرة يتحدد موقع (الآخر).

كما أنّ مفهوم (الآخر) ليس مفهوما فرديا فقط، وإنّما هو مفهوم جمعي أيضا، ففي الوقت الذي يشكل فيه الفرد تصورات عن الآخر بناءً على تصوره لذاته، فإنّ المجتمع أيضا يكون له تصور عن الآخر بناءً على تصوره لذاته، فالتلازم الذي أشرنا إليه يكون على المستوى الجمعي كما هو على المستوى الفردي.

إذن فالآخر هو «الكائن المختلف عن الذات وهو نسبي ومتحرك، ذلك أنّ الآخر لا يتحدد إلاّ بالقياس إلى نقطة مركزية هي الذات، وهذه النقطة

⁽¹⁾ - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، مج1، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط1، 2001م، ص124

⁽²⁾ - أندريه لالاند: المرجع السابق، ص124 و125

⁽³⁾ - محمد عابد الجابري: مفهوم الأنا والآخر ...، www.aljabriabed.net

المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة، فقد يتحدد الآخر بالقياس إليّ كفرد، أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء بالنسبة للرجال والفقراء بالنسبة للأغنياء أو خارجية بالقياس إلى مجتمع بصورة أعم»⁽¹⁾

ومثال ذلك العرب بالنسبة إلى الغرب، وهذه النسبية في مفهوم الآخر هي ما يجعل من الصعب تحديده، فكل آخر بالنسبة لفرد أو جماعة هو ليس بآخر لشخص آخر أو جماعة أخرى.

ويمكننا اكتشاف صورة الآخر في مجتمع ما بطرائق مختلفة منها النظام القانوني أو التحليل الاجتماعي أو التحليل النصي، فالنص الأدبي يحمل الأنساق الثقافية التي تحكم مجتمعا ما، فالنص بمثابة المرآة العاكسة لصورة الآخر حيث «لا تخلو ثقافة من الثقافات من تمثيل للذات أو للآخر، فالتمثيل هو الذي يعطي للجماعة صورة ما عن نفسها وعن الآخر، وهو الذي يصنع لهذه الجماعة معادلا لما يسميه بول ريكور (الهوية السردية) للجماعة»⁽²⁾

وبما أن رسم صورة الآخر يعود أساسا إلى الثقافة التي تنتمي إليها (الأنا) أو (الذات)، فإن صورة الآخر ليست هي الآخر، وإنما هي «بناء مشكل في المتخيل وفي الخطاب، أما الآخر فهو الكائن الذي يتحرك في الواقع»⁽³⁾

لهذا فالصورة ليست هي الواقع، بل هي من اختراع واختلاق الأديب يتم تخيلها وتمثيلها، كما أنها ليست أيضا النقيض الحاسم للواقع، فالمتخيل في أحد أبعاده جزء من الواقع، يصعب في بعض الأحيان التمييز بينهما.

ثالثا: الرواية الجزائرية الفرانكوفونية:

¹- نادر كاظم: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان، ط1، 2004م، ص20

²- نفسه، ص16

³- نفسه، ص20

قبل تحديد صورة (الآخر) في الرواية الجزائرية الفرانكفونية، لابد من تقديم نبذة عن ظروف نشأة هذه الرواية وعن أشهر كتّابها، باعتبارهم من صوّروا (الآخر) في رواياتهم، سواء تمّ لهم ذلك بالرحلة إلى فرنسا أو بالمشاركة في الحرب، ومعرفة نظرتهم للآخر هل كانت أفقية (في مستوى واحد) أم كانت رأسية (من فوق إلى تحت أو العكس)؟

لقد سعت فرنسا منذ احتلالها الجزائر إلى تفجير وتجويع الشعب الجزائري وسلب أراضيهِ من جهة وإلى محاربة ثقافته العربية والإسلامية، ببناء المدارس العسكرية والمدنية من جهة ثانية، لذلك اضطر الجزائريون لتعلم اللغة الفرنسية، فتكونت مجموعة من المثقفين أنبتت فيما بعد أدباء يعبرون عن أفكارهم ويصورون معاناة شعبهم باللغة الفرنسية «والحقيقة أنّهم كانوا في أغلبهم أصحاب ثقافة فرنسية وعربية عالية وكان منهم من يمتلك موهبة روائية غير عادية»⁽¹⁾

ولا مجال هنا للتشكيك في انتماء ووطنية هؤلاء الكتّاب «فكل كاتب مارس وظيفته على أرض تسمى "الجزائر" هو جزائري دون الرجوع إلى لغته أو انتمائه التاريخي»⁽²⁾

فقد خصصوا حيزا من تفكيرهم لتمثيل الجزائري المقموع ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، فدافعوا عنه أحسن دفاع وعبروا عنه أصدق تعبير، كما أنّ كل كاتب نقل اللوحة من جانبه، ويكفي أن تجمع اللوحات كلها لتشكّل الشكل الأخير لمأساة الجزائر.

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته قضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007م، ص5

² - أم الخير جَبّور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقديّة، دار ميم للنشر ط1، 2013م، ص35

تعتبر سنة 1950م سنة ميلاد الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي، على يد كوكبة من الروائيين الجزائريين الذين تعلموا في المدرسة الفرنسية وحصلوا نصيبا وافرا من الثقافة الفرنسية دون أن يفقدوا إحساسهم بالوطنية، فعبروا عن مجتمعهم الذي كان يعيش وقتها حركية استثنائية على جميع الأصعدة السياسية والثقافة والاجتماعية، كانت البداية مع (ابن الفقير) 1950م لمولود فرعون⁽¹⁾، ثم الأرض والدم 1953م، والدروب الوعرة 1957م. أما محمد ديب⁽²⁾ فقد نشر ثلاثيته الدار الكبيرة 1952م الحريق 1954م والنول 1957م، فـ « بين سنة (1952 و1956) عرفت الرواية المكتوبة بالفرنسية قفزة نوعية على المستوى الفني والكتابي أي على مستوى الكيف فهذه المرحلة كانت لمساءلة الذات بعد الحرب العالمية الثانية مرحلة كشف وفضح للواقع المقلق»⁽³⁾، وقد صنف بعض النقاد هذه الأعمال الأدبية بأدب الرفض والمقاومة، وهذا الأمر لم يكن ليرضي الصحافة الفرنسية، واعتبرته عقوقا.

1. صورة الآخر في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية:

¹ - مولود فرعون: كاتب وروائي جزائري كبير، ولد في تيزي وزو سنة 1913م، سقط شهيدا برصاص الغدر والحقد الاستعماري في 15 مارس 1962م، من أقواله: (أكتب بالفرنسية، وأتكلّم بالفرنسية، لأقول للفرنسيين، أني لست فرنسياً)، بدأ الكاتب تحرير رواية ابن الفقير 1939م وانتهى منها سنة 1944م، لما الخاتمة التي أنهى بها الرواية فكانت سنة 1948م ولكن الرواية ككتاب فلم تصدر إلا سنة 1950م على نفقته الخاصة.

² - محمد ديب: كاتب وأديب جزائري باللغة الفرنسية في مجال الرواية والقصة القصيرة والمسرح والشعر ولد 1920 في تلمسان -توفي 2003 في سان كلو في فرنسا. ترك أكثر من 30 مؤلفا منها 18 رواية أخرى "إذا رغب الشيطان" و"الشجرة ذات القيل" عام 1998، وخمسة دواوين شعرية أخرى "أه لتكن الحياة" عام 1987، وأربع مجموعات قصصية أخرى "الليلة المتوحشة" عام 1997م

³ - أم الخير جبور: المرجع السابق، ص 40

يعدُّ الروائي أكثر الأدباء عناية بتقديم الواقع، فالرواية تعنى بالناس والحياة التي يراها الروائي أو يخبرها أو يجد نفسه فيها، وهي لا تكون في كل الأحوال صورةً لذلك، وإنَّ طبيعة العلاقة بين الرواية والواقع تتيح رؤية صورة هي بدرجةٍ ما تمثل الواقع، ومن هنا تأتي أهمية صور العلاقة ما بين العرب والغرب كما تمثلتها الرواية العربية عموماً والرواية الجزائرية خصوصاً، فعندما كان المجتمع العربي قويا صاحب حضارة لم يكن الآخر (الغرب) يمثل مشكلة، وعندما فقد قوته واهتزت ثقافته أصبح الآخر يمثل تهديداً وعدواً، خاصة بعد أن خرج الغرب منتصراً من القرون الوسطى، مزهوا بنتائج النهضة الأوروبية، مزوداً بالعلم والتكنولوجيا، مسلحاً بالآلة الحربية ما مكنه من استعمار العرب، (الآخر) بحجة أنه يعاني الجهل والتخلف وتقع عليه مسؤولية تحضيره.

لذلك فإنَّ الموقف الفكري للعرب عن الغرب هو في أغلب الأحيان تعبير عن تلازم بين العداوة والإعجاب، وقد عزز الاستعمار الغربي ازدواجية صورته صورة العدو المتقدم.

ولتحديد صور الشعب الفرنسي في الرواية الجزائرية، علينا الوقوف على أبرز الشخصيات الروائية الواردة في الإنتاج الأدبي الجزائري باللسان الفرنسي، ذلك أن صور (الآخر) تعتمد على تلك الشخصيات الروائية، فهي النماذج التي يمكن حصرها واستخلاص سماتها للخروج بتصور شامل.

حينما غزت فرنسا الجزائر، كان جيشها مكوناً من أبناء فرنسا جنوداً وضباطاً، وخداماً؛ أي أنّ عناصره تنتسب إلى مختلف طبقات المجتمع الفرنسي، وبعدها بدأت مرحلة الاستيطان، وبدأت سيول المهاجرين تتدفق مكونة من فلاحين وتجار ومتقنين،.. وشيدوا القرى والمدن بالمزارع

والمصانع والمدارس وتعبيد الطرق، ثم فرضوا على الشعب الجزائري ثقافة جديدة وعادات وتقاليد لا علاقة لها بالدين الإسلامي، لذلك يمكن التأكيد على أن الفرنسي يمثل فرنسا؛ لأنه ابنها جاء لتحقيق أهدافها.

وبما أن موضوع البحث الرواية الجزائرية الفرانكوفونية، فإننا حددنا روايتي "الحريق" لمحمد ديب، و"الأرض والدم" لمولود فرعون. كعينة للبحث، ثم تحديد مجموعة من الصور فيها وهي: صورة رجل الأمن، صورة المعمر، صورة المرأة الفرنسية.

أ. صورة رجل الأمن: الشرطة ورجال الدرك.

عانى الجزائريون كثيرا من الوجود الفرنسي، وخاصة من معاملة رجال الأمن الفرنسيين، حيث كانوا في احتكاك يومي ومباشر معهم، باعتبارهم يمثلون السلطة الفرنسية، وقد وردت نماذج كثيرة لهم في رواية "الحريق"⁽¹⁾ لمحمد ديب، هذه الرواية التي أرادها الكاتب شهادة على الوضع الاستعماري في الريف الجزائري، حيث ركز على العلاقة التي تربط الفلاحين بأرضهم وخلفيات هذه العلاقة وما تشكله من اصطدام مع "الآخر" الغاصب، الذي نقل ملكيتها إليه بموجب قانون فرضته السلطات الاستعمارية، فقد «سُلبت أراضيهم وأخذت بالقوة من طرف "الآخر"⁽²⁾»⁽²⁾ فيها هو يؤكد ذلك بقوله: «آه ما كان أحذقهم في تجريد هؤلاء الفلاحين من كل شيء في سبيل

⁽¹⁾ - رواية "الحريق": تبلور فكرة نشر الإيديولوجية الثورية أكثر فهي تروي بقطة سكان الريف في فترة تاريخية معينة وتجعل مقاومة الفلاحين للاستغلال؛ الخط السياسي الذي تدور حوله الأحداث ويأتي الوعي بالمقاومة هذا على مراحل: المرحلة الأولى؛ محاولة تنظيم الفلاحين، المرحلة الثانية؛ الإعلان عن الإضراب، المرحلة الثالثة؛ انتقام المعمرين، بحرق أكواخ الفلاحين، المرحلة الرابعة؛ مواصلة الإضراب

⁽²⁾ - يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين الجزائر، 2004م، ص 245

مصلحتهم .. كان هناك غول شره لا تراه الأعين، ما ينفك يبتلع بين فكيه الفاعرين أشلاء من هذه الأرض التي سقوها بعرقهم وبدمائهم، يبتلعها في ذهول منهم وغفلة ... إنه القانون»⁽¹⁾ إنها رواية تطرح إشكالية ثنائية تقوم على الصدام الواقع بين الفلاحين والمعمرين (المستوطنين) وبين الفلاحين ورجال الأمن.

لقد شكّل رجال الشرطة ورجال الدرك معا السلطة المراقبة والمباشرة على سكان بني بوبلان، باعتبارها منطقة ريفية، حيث كانوا بالمرصاد لكل التحركات التي قام بها الفلاحون.

1. صورة الشرطة:

على الرغم من أهمية رجال الشرطة، فهم في الرواية متشابّهون، رغم اختلاف درجاتهم «لاحظهم مسكين لقد كان يعرف هذه الوجوه... إنّ لهم وجوها واحدة وملامح واحدة»⁽²⁾ ' فوجههم «وجوه شهباء كأنّها وجوه أشباح»⁽³⁾، لا يحملون في قلوبهم إلاّ الحقد والكرهية، «ارتدّ الجمهور مرة أخرى أمام وثبة رجال الشرطة الغاضبة الحانقة»⁽⁴⁾ كما أنهم لا يبالون ولا يهتمون بأمر الفلاحين، فها هو واحد منهم «يهز رشاشه بأطراف يده في إهمال»⁽⁵⁾ وكأنّ هؤلاء الذين تجمعوا أمامه ليسوا من البشر، ولا يستحقون الحياة.

¹- محمد ديب: الحريق: تر: فارس غصوب، منشورات ANEPK، الجزائر، 2007م ص89

²- محمد ديب: الحريق: ص188

³- نفسه، ص195

⁴- نفسه، ص196

⁵- نفسه، ص196

أمّا الذين ميزهم الكاتب عن غيرهم فهذا الذي أطلق عليه اسم "الرقم" الذي تولى تعذيب "حميد سراج" بعد اعتقاله، فمنظره منفر يثير الاشمئزاز لا الخوف، «كان "الرقم" يتحدث منذ مدة، وكان زملاؤه يتزاحمون حوله، واستمر "الرقم" يهذر ويثرثر، لم يكن حميد يصغي إليه، ... رفع "الرقم" يده، وهوى بها على وجه حميد في صفة قوية، اهتز رأس حميد لكنّه لم يطرف بعينه... هوى "الرقم" بقبضة على وجه سراج، فأحدث تشظية في وجهه، راح عدد من رجال الشرطة يضربون ... وازدادوا إحاطة به وتحلقوا حوله كأنهم مادة جامدة»⁽¹⁾، فهو شرطي يجسد خشونة الشرطة الفرنسية وقسوتها في التعامل مع الجزائريين.

أمّا النموذج الثاني فهو **مفوض الشرطة**، «ثم خيم الهدوء وأعقبه صمت رهيب طويل ثمة شخص يقترب خطواته مسموعة من بعيد حاول حميد أن يفتح عينيه فلم يستطع ذلك ... رأى حميد أحذية سوداء إنه مفوض الشرطة في زيه العسكري يا لهذا الجسم الضخم! اقترب الجسم الضخم أكثر من ذلك، حديدة النعل تقرع الأرض بصوت جاف ابتعد رجال الشرطة أنهم يراقبون موقف رئيسهم بصمت مطبق»⁽²⁾ لم تتضح لنا صورة المفتش كثيرا، لأن محمد ديب «يكشف عن صورته في إطار بواسطة الوصف والسرد»⁽³⁾

لذلك فقد ظهرت ملامح رجال الشرطة بصفة عامة، فهم متشابهون، قساة القلوب لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم طريقا، يسيئون معاملة الجزائريين، يحنقونهم ويفرطون في تعذيبهم، فرجل الشرطة الفرنسي يكاد لا يعرف إلا

¹- نفسه، ص150

²- محمد ديب: المصدر السابق: ص151 و152

³- عبد المجيد حنون: المرجع السابق، ص243

العنف والضرب المبرح حتى الموت، إضافة الى الشتم والسب، باعتبارهما من وسائل التعذيب النفسية، أما من حيث الصفات الخارجية فهم غالبا قصار القامة ضخام الجثة، يضربون عرض الحائط كل القيم والأخلاق، فاقدون للروح الإنسانية.

2. صورة رجال الدرك:

غالبا ما يتم الاعتماد على رجال الدرك في الأرياف والبوادي، حيث يقومون بمراقبة الأهالي، عكس ما نجده في المدن، فالشرطي هو ممثل السلطة في كل الأمور.

لقد ظهر رجال الدرك في بني بوبلان مع رجال الشرطة، مهمتهم اعتقال كل من يشتبه في أمره، أو من يصفونهم بالمجرمين «حذار! قال القائد إنّ الذين قبضنا عليهم أناس مجرمون وسيكلفكم غالبا جدا أن تفكروا في مساعدتهم!»⁽¹⁾ وما يميزهم عن رجال الشرطة أنهم «مروا أمامهم ضخاما ثقالا، وقد نصبوا أكتافهم وأحكموا وضع خوذهم على جباههم»⁽²⁾ لكنهم يشتركون معهم في قسوة القلوب، واحتقار الجزائريين «وبحركة مضطربة هجم رجال الدرك أيضا على الفلاحين فأسقطوا عدداً منهم، وبعثروا عدداً آخر»⁽³⁾، وبذلك تنطبق الصورة الداخلية مع الصورة الخارجية فالجثث الضخمة الثقيلة والقوية مع سلوكهم في دفع عدد من الفلاحين بقوة وإسقاطهم أرضا لا لشيء سوى أنهم اقتربوا من موكب المعتقلين، وقد اعتمد الكاتب في ذلك على أسلوب السرد والوصف معا.

ب: صورة المعمر (المستوطن أورب العمل).

¹- محمد ديب: نفسه، ص197

²- نفسه، ص196

³- محمد ديب: المصدر السابق، ص197

لقد استولى المعمرون منذ وصولهم الجزائر على أجود الأراضي الزراعية بالقوة، «ألوف الهكتارات من الأرض كانت تصير لمستوطن واحد من الفرنسيين، هؤلاء المستوطنون جميعا سواء»⁽¹⁾، أما الفلاحون الجزائريون فقد أخضعهم فرنسا لمجموعة من القوانين الاستثنائية شديدة القسوة والاضطهاد (قانون الأهالي) وفرضت عليه العمل في مزارعهم وحقولهم مقابل أجر زهيد، وبذلك ازدادت كراهية الجزائريين لهذا الغازي الذي اغتصب أرضه ودنس شرفه، فهم في نظره مجرد لصوص، «لأنّ المستوطنين لصوص ولأنّ القائد لص ولأنّ رجال الدرك لصوص»⁽²⁾ وهكذا أصبح متشردو أوروبا وصعاليكها يتمتعون فيها بحق المواطنة الفرنسية، «لقد وصلوا إلى هذه البلاد بأحذية مثقوبة نعالها، إنّ الناس هناك لا يزالون يذكرون الحالة التي كانوا عليها حين توافدوا إلى هذه البلاد، وما هم الآن يملكون مساحات من الأرض لا تعد ولا تحصى»⁽³⁾

وبهذا كان المعمرون ظاهرة بارزة في الرواية الجزائرية الفرانكفونية، فقد تمت الإشارة إليهم في رواية "الحريق" لمحمد ديب في أكثر من موضع، فهم أصحاب مزارع كبيرة، ويشغلون عددا كبيرا من الفلاحين، وغالبا ما يتم طردهم بعد تقدمهم في السن، مثلما حدث مع الفلاح "باديدوش" «رموا بنا إلى الخارج أنا وزوجتي وأولادي، وما نملك من أمتعة إنّ ابنتي الكبرى ريم التي دخلت عامها السادس عشر كانت تعمل خادمة في منزل مسيو فيار لقاء طعامها فحسب، ولقد ظلت تعمل في منزلهم ست سنين، ثم مرضت فما كان

¹- نفسه، ص41

²- نفسه، ص41

³- نفسه، ص41

من مسيو فيار إلا أنه طردها ... وماتت بعد ذلك بقليل، وسألني هل عندي ابنة أخرى أقدمها إليه، أمّا أنا فقد رفض أن يعهد إليّ بأي عمل إنه يقول إنني قد هرمت»⁽¹⁾

أمّا البعض الآخر فقد تمّ استبدالهم « وقد دعم هؤلاء الخدم رجالاً من مراكش، اجتازوا الحدود سرا، ولم يتمتع المستوطنون عن تشغيلهم بأجور أقل رغم القوانين»⁽²⁾

إنّ الفلاح الجزائري يدرك تماما حقيقة هؤلاء، إنهم مصدر البلاء وسبب تعاسة الجزائريين يمتصون عرقهم.

لقد قدم الكاتب نماذج للمعمرين، في ريف بني بوبلان فهناك مسيو ماركوس، الذي ميزه عن بقية المعمرين ووصفه وصفا واضحا ودقيقا، إنه من « كبار السادة ، فهو رجل نبيل ، سليل أسرة من المستعمرين إنه بالدم والثراء ابن عم عدد من السادة المشهورين هم أصحاب مساحات شاسعة من الأراضي وورثتها»⁽³⁾

كما أنه يمتلك مزرعة واسعة وبيتا عتيقا بناه جده «ولون آجره القديم الوردى الحائل، وسقفه القرميدي المغطى بطبقة من الطحلب الرمادي، هذا الوجه صنعه الاستعمار كل ذلك كان يبدو أنه هو الوجه الحقيقي للجزائر، ولكنه ليس إلا السطح الظاهر وللجزائر مليون وجه آخر»⁽⁴⁾

كان ماركوس لا يخرج كثيرا، وقد تعرف عليه الفلاحون يوم وقع الحادث في مزرعة مسيو فيار، حيث مات أحد الفلاحين بعد أن عجنته آلة

(1) - محمد ديب: المصدر السابق، ص176 و177

(2) - نفسه، ص189

(3) - نفسه، ص108

(4) - محمد ديب: المصدر السابق، ص 103

الحصاد، حيث أقبل مسرعا «وفي تلك اللحظة وصل فرنسي آخر يترنح على ساقين قصيرتين عجيبتين، إنه مسيو ماركوس نفسه الرجل الذي كان الفلاحون لا يلمحونه إلا لماما، ارتفع صوته المرتج واضحا حاسما فسيطر على صيحات الوكيل»⁽¹⁾

إنه صورة للمعمر الفرنسي الذي لا يهمله أمر الفلاحين، بقدر ما يهمله سير العمل، فقد سارع بتغطية جثة الفلاح ثم أجبر الفلاحين على العود إلى أعمالهم، وقد بلغ به الأمر أن هددهم والسلاح بيده، والملاحظ أن محمد ديب لا يصف المعمرين إلا بالعنف ومعاداة الأهالي»⁽²⁾

أمّا المعمر مسيو أوغست «فهو رجل في الخمسين من عمره... رأوه يصل بخطى سريعة بعد أن أغلق الباب الكبير، كان وجهه وجه رجل حسن التغذية يلتهم التمتع شعره الوردي، وعلى ساقيه القويتين يجثم جذع عريض، إن كرشه يطفح فوق حزامه»⁽³⁾

لقد وصفه الكاتب وصفا ظاهريا ولم يعط لنا صورة حية عنه، فهو كغيره من المعمرين سمين، منتفخ البطن تظهر عليه علامات الغنى، لا يهمله الفلاحون في شيء، يسعى لامتلاك الأراضي وجمع المال، برجوازي متكبر، يرد على الفلاحين باستخفاف وازدراء، فهو من الذين «نصبوا أنفسهم آلهة وأربابا وأرادوا أن نعبدهم»⁽⁴⁾

لقد صورهم الكاتب بوصفهم، وسرد أعمالهم من طرف الراوي نفسه مرة، وبالحوار من قبل الفلاحين مرة أخرى، باعتبارهم من شخصيات

⁽¹⁾ - نفسه، ص109

⁽²⁾ - عبد المجيد حنون: المرجع السابق، ص249

⁽³⁾ - محمد ديب : نفسه: ص106

⁽⁴⁾ - محمد ديب: المصدر السابق: ص126

الرواية، كما عرض لنا بعض الصفات الخارجية وأخرى داخلية، فهم —
عموماً — حاقدون مستغلون، عنيفون وجشعون، اغتصبوا الأراضي
واستعبدوا فلاحها، يمثلون فرنسا الاستعمارية بكل معنى الكلمة.

ج: صورة المرأة الفرنسية:

للمرأة صورة محددة المعالم في مخيلة الجزائري، تحكمها وتحيط بها
جملة من العادات والتقاليد المتوارثة أبا عن جد، فهي الأم والأخت والزوجة
،.ومن الضروري أن تكون عفيفة شريفة، محتجبة عن الرجال، ولما احتلت
فرنسا الجزائر، قدم المعمرون وكانت معهم المرأة الفرنسية مشكلة صورة
مغايرة، فهي سافرة، تتصرف بكل حرية تخرج متى تشاء، ومع من تشاء،
نظر إليها بعض الجزائريين نظرة إعجاب وتقدير، في حين نفر منها بعضهم
الآخر، غير أنهم اضطروا فيما بعد للتعامل معها.

ومن هنا نستطيع تحديد صورتين للمرأة الفرنسية هما:

1. صورة المرأة الفرنسية زوجة الفرنسي(الآخر):

تختلف عادات وتقاليد المجتمع الفرنسي في تحديدها للعلاقة الزوجية
اختلافاً يكاد يكون متبايناً، عن تلك التي ألفها الجزائري، خاصة إذا تعلق الأمر
بمسألة الخيانة الزوجية، وجرأة كل من الزوجين على خيانة الآخر.

ومثال ذلك السيدة "إيفون" زوجة أندري البولندي الجنسية صاحب الفندق
الذي يقيم فيه كل أفراد اغيل نزمان ومنهم عامر بطل الرواية وقد وصفها
الكاتب بأنها « امرأة مكتنزة شقراء ذات ضحكة حادة ولكنها تعرف كيف تنتمر
وتحني هامة أغلب المكترين البخلاء المتمردين »⁽¹⁾

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، تر عبد الرزاق عبيد، دار ثلاثيقيت، بجاية الجزائر،
2012م، ص 70

كانت على علاقة غير شرعية مع الجزائري "رابح"، لم تتخل عنه منذ عرفته قبل زواجها من أندري، غير أنها تشترط عليه التستر والسرية التامة، وإلا فهي تتوعده بالقتل، إن كشف الأمر لزوجها، «إنها تصرُّ على أن تكون علاقتنا سرية وإلا فإنها قادرة على قتلي»⁽¹⁾

إضافة إلى ذلك، فإنها أحيانا تكون متساهلة مع الآخرين تسمح لهم بمزحة أو مداعبة أو حتى بلمسة خفيفة، غير أنَّ عامر كان قد «احتفظ في بذكرى غامضة عن تلك الليلة التي قضاها مع أيون»⁽²⁾

كما أنَّها جريئة لدرجة أنها واجهت زوجها أندري بعلاقتها مع "رابح"، وأنها لم تعد تخشاه أو تطيق وجوده، وبعدها لم يعد لأندري وجود «ارتبطت مرة أخرى بسيد كبير السن لديه بيت مقوض في بانيتين ضاحية باريس يسمى جوزيف ميتار»⁽³⁾

إنَّ الزوجة الفرنسية الواردة في الرواية تظهر معالم شخصيتها واضحة، فقد عرض الكاتب صورتها بالسرود المباشر، فهي إلى جانب بنيتها القوية تظهر مرحة، لا تجد حرجا في العبث مع زبائنها إلى درجة الدخول معهم في علاقات غير شرعية من أجل إشباع رغبتها الثائرة.

2. صورة زوجة الجزائري (حبيبته):

لقد اضطر الجزائري للتعامل مع المرأة الفرنسية، بعد أن اختلط معها في الشارع والعمل وحتى في مكان الإقامة، وهنا نشأت بينهما علاقات، خاصة علاقة المهاجر الجزائري مع الفرنسية، التي أصبحت عادية جدا.

¹- نفسه، ص71

²- نفسه، ص82 و83

³- نفسه، ص122

ومن نماذج هذه الزوجة والحببية "ماري" أو "مادام" في رواية "الأرض والدم" لمولود فرعون، فهي زوجة عامر بطل الرواية وحببته، فقد عرفها صغيرة، فهي ابنة ايفون زوجة أندري صاحب الفندق، «إنها صبية ذات عينين زرقاوين تطفحان بالبراءة، وبظفيريها الذهبيتين، ووجهها المستدير المخملي الذي يشبه الخوخ، كانت ساحرة صغيرة تبهج جميع من في الفندق»⁽¹⁾ ثم تزوجها فيما بعد ليصحبها إلى الجزائر وبالتحديد إلى قريته اغيل نزمان.

لقد أثارت إعجاب العديد من نساء القرية، «ويمننا القول بأن مادام قد استقبلت بكثير من التعاطف»⁽²⁾ خاصة حماتها كمومة، فها هي تعترف لابنها قائلة «أنا أحب زوجتك كثيرا، نعم، نعم كثيرا، ما يكفي لملء منزل، وها أنا أقبلها»⁽³⁾ بالرغم من أنها تعتقد «أن "مادام" لا يمكن أن تكون زوجة لولدها أن من تناسبه توجد بإيغيل نزمان»⁽⁴⁾

إنها امرأة تختلف عن النساء القبائليات، بل «تسحقهن جميعا بجمالها، لا بتناسق ملامحها وانسجام تقاسيمها ولكن بصفاء سحنتها والألوان الزاهية لوجهها ونعومة يديها وكيفية مشطها وتفصيل جبتها»⁽⁵⁾

لقد أبدت إعجابا بالقرية وطبيعتها، وأسرت في الاندماج بأهلها فأتقنت اللغة القبائلية، حيث «بدت السيدة سعيدة، الواقع لم يخيب أملها كانت تنتظر أقل من هذا» لقد ودعت الذل والإهانة وارتاحت من الشعور بالعبودية،

¹- مولود فرعون: المصدر السابق، ص 71

²- نفسه، ص 44

³- نفسه، ص 37

⁴- نفسه، ص 37

⁵- نفسه، ص 39

وأصبحت الغرفة رقم 4 مجرد ذكرى، «إنها في مملكة إيغل نزمان سنديلا كما يُقال ... فجأة تجد عالما يرفعونها فيه إلى الصف الأول .. ترى نفسها جميلة جدا وسط هؤلاء الفلاحات، جميلة كما لو لم تكن يوما»⁽¹⁾ ومما زاد من سعادتها ورضاها حب حمايتها لها، كما أنها اتخذت صديقة لها "شابحة" زوجة سليمان، مرت سنوات عليها في القرية، وبعد مقتل زوجها حزنت عليه حزنا شديدا، وقررت البقاء في القرية. اعتمد الكاتب في رسم صورة ماري (مادم) على أسلوب الوصف التقريري المباشر، كأنها موضوع منفصل قائم بحد ذاته، بداية بالوصف التام لجسمها وانتهاء بحالتها النفسية، كما اعتمد تقنية التقديم والتأخير أثناء سرد أحداث الرواية.

الخاتمة:

وما نلاحظه في الأخير هو تعدد العلاقات التي جمعت الجزائري بالآخر واختلقت صورته بحسب هذه العلاقة فجاءت متنوعة فيها ما يستوجب الاستحسان والإعجاب وفيها ما يعبر عن الاستهجان والنفور، وهذا أمر طبيعي حيث من الصعب أن تتقبل الذات كل شيء في الآخر، ومن الصعب أيضا أن ترفض كل شيء، خاصة إن كانت العلاقة التي تجمعهما هي العدا، فالآخر هو العدو وإن بدا طيبا متسامحا، ومنه نخلص إلى النتائج التالية:

1. اهتم الروائيون الجزائريون بالآخر، حيث شغلت صورته مخيالهم، فتعددت و تنوعت النماذج في رواياتهم، منها: رجل الأمن، رب العمل، والمرأة الفرنسية(الزوجة والحبيبة).

⁽¹⁾ - مولود فرعون: المصدر السابق، ص54

2. تقاربت ملامح صور الآخر - خاصة رجل الأمن - في روايات الكتاب الجزائريين الفرانكوفونيين، فهو بصفة عامة يمثل الاستعمار الفرنسي، قاسي القلب، يسيء معاملة الجزائري، لا يعرف إلا العنف، مهمته الاعتقال والتعذيب.
3. أمّا صورة رب العمل فهي لا تختلف كثيرا عن صورة رجل الأمن الفرنسي، مع أنّها أكثر وضوحا، فهو ممثل لفرنسا، مغتصب لأرض الجزائري، مستغل، جشع، يتصف بالعنف، يكره الجزائريين ويحتقرهم.
4. تبدو المرأة الفرنسية محددة المعالم في الرواية الجزائرية الفرانكوفونية، فهي جميلة، فاتنة، في أغلب الأحيان، متساهلة جريئة، سافرة، متحررة، كثيرا ما تربطها علاقات خاصة بالجزائري، فيمكن أن تكون زوجته أو حبيبته.
5. تعددت العلاقات التي ربطت الجزائري بالآخر (الفرنسي)، فتنوعت صورته في مخيال الروائيين الجزائريين الفرانكوفونيين، منها ما يستوجب الإعجاب لدرجة الافتتان ، ومنها ما يستوجب النفور والاستهجان، ومع ذلك يبقى الآخر هو العدو المحتل وان بدا طيبا متسامحا.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

1. محمد ديب: الحريق: تر: فارس غصوب، منشورات ANEPK، الجزائر، 2007م ص89
2. مولود فرعون: الارض والدم، تر عبد الرزاق عبيد، دار ثلاثنقيت، بجاية الجزائر، 2012م

ثانياً : المراجع.

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، مج 4، ص473 (مادة صور)
2. أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته قضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007م

3. أم الخير جبّور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقديّة، دار ميم للنشر ط1، 2013م
4. أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، مج1، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط1، 2001م
5. عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة الجزائر، ط3، 2015م
6. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، 2008م، ص955 مادة (صور)
7. محمد الخبّاز: صورة الآخر في شعر المتنبي، (نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2009م
8. محمد عابد الجابري: مفهوم الأنا والآخر ...، www.aljabriabed.net
9. نادر كاظم: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان، ط1، 2004م
10. يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين الجزائر، 2004م